Arabic and World Literature:
Comparative and Multidisciplinary Perspectives

AWL 1, 7, 2020
DOI: 10.31526/awl.1.2020.150

مراجعة نقدية لكتاب اشتهاء العرب

جوخة الحارثي

قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، مسقط، سلطنة عمان

Jokha1@squ.edu.om

المستخلص:

هذه مراجعة نقدية لكتاب جوزيف مسعد اشتهاء العرب، الصادر عن دار الشروق، بترجمة إيهاب عبد الحميد، في عام 2013، وكان قد صدر بالإنجليزية عن منشورات جامعة شيكاغو، في 2007، مما شكل حدثا هاما على مستوى الدوائر الأكاديمية المتخصصة. يبنى مسعد آراءه على أطروحة ادوارد سعيد النقدية الشهيرة عن الاستشراق، وإن كان يدفع بها إلى مدى أبعد، ليُرينا كيف عملت الآليات الإستشراقية داخل منجز المفكرين العرب أنفسهم. يناقش مسعد مفهوم الجنسانية باعتباره نتاجا للاستعمار. إن هذا الكتاب يكشف لنا كيف أثَّرت التصورات الغربية عن العرب والمسلمين، على نظرة العرب والمسلمين لأنفسهم، وكيف استخدموا المفاهيم الأوروبية نفسها لتحديد ماهيتهم، لاسيما في موضوع ربط الشهوة الجنسية بالحضارة.

Desiring Arabs, A Critical Review

Jokha Al-Harthi

Department of Arabic Language, College of Arts and Social Sciences, Sultan Qaboos University, Muscat, Sultanate of Oman

Jokha1@squ.edu.om

Abstract:

Desiring Arabs by Joseph Massad is translated into Arabic by Ihab Abd Al-Hamid and published in 2013 by Dar Al-Shurouq in Cairo. The book has gained a considerable academic attention since its first publication in 2007 by Chicago University Press in English, especially among scholars in the field of Middle Eastern Studies. Massad builds on what Edward Said has provided in his famous thesis on *Orientalism*. However, Massad builds on Said's theories to further explore how the Arabs perceived themselves also in light of the Western Orientalist view and how this influenced how they reviewed their own history. Massad discusses sexuality as a result of imperialism. He agrees that the topic of sexual desires has long played a key role in Western judgments of the value of Arab civilization, but he also reveals the history of how Arabs represented their own sexual desires.

كان صدور هذا الكتاب، في نسخته الأصل بالإنجليزية بعنوان Desiring Arabs عن منشورات جامعة شيكاغو، في 2007، حدثا هاما على مستوى الدوائر الأكاديمية المتخصصة، وعلى المستوى الشخصي بالنسبة لي، إذ كنت آمل أن تحظى أطروحة ميشيل فوكو حول الجنسانية باستلهام يفيد منها على مستوى الكتابات العربية، كما وددتُ أن أقرأ مناقشة مستفيضة لأطروحة بوحديبة حول الجنس في الإسلام، فكان كتاب جوزيف مسعد، الناقد الأكاديمي، وأستاذ السياسة والفكر العربي بجامعة كولومبيا بنيويورك، محققا لهذا الأمل، وأكثر منه، بطرحه الاستثنائي الذي نقَّب فيه في الكتابات العربية الأكاديمية والصحفية والدينية والطبية والجنائية والأدبية، التي تتناول موضوع "الشهوة الجنسية"، خاصة الشاذة منها.

نُشرت ترجمة كتاب مسعد بعنوان "اشتهاء العرب" في 2013، عن دار الشروق، في القاهرة، في ثلاث وستمائة صفحة، وستة فصول، وبالغلاف نفسه المنشور في النسخة الإنجليزية، الذي تصدرته لوحة الرسام المصري محمود سعيد، وهي بورتريه لصديقه جورج خوري، يرتدي ثيابا سوداء، على خلفية سوداء، وينظر نظرة تجمع بين الغموض والكشف والنداء الحسي.

وقد ترجمه إيهاب عبد الحميد ترجمة خضعت لمراجعة المؤلف، حسب ما كشفت عنه مقدمته للنسخة العربية أولا، التي قدمت الترجمة على أنها نتيجة "الجهد المشترك بين المؤلف وبين المترجم والمحقق"، ثم معاركه مع المترجم على صفحات الجرائد ثانيا[1]. تبدو ترجمة عنوان الكتاب بـ"اشتهاء العرب" ترجمة قلقة، إذ أن المصدر "اشتهاء" يجعل القارئ متذبذبا بشأن كلمة "العرب" المضافة إليه، فهل العرب هم أصحاب الاشتهاء ومنتجوه، أم هم موضوع هذا الاشتهاء، فهو واقع عليهم؟ هل هو اشتهاء غير العرب للعرب، أم اشتهائهم لتصور معين عن العرب؟ أم هو اشتهاء العرب أنفسهم لمواضيع الشهوات المتعددة؟ هل هو إذن شهوة العرب: عرب الماضي كما صورها عرب الحاضر، وعرب الحاضر كما تصوروا شهواتهم، متأثرين بوعي أو بدونه بتصور الغرب لهم؟ لعل هذه الازدواجية في العنوان تعكس تعقيد الكتاب وانفتاحه على أكثر من اتجاه في التفكير في الموضوع نفسه.

يبسط جوزيف مسعد في تقديمه للطبعة العربية دوافع كتابه بجلاء: "قراري بكتابة الكتاب كان ردا على نقاشات أكاديمية ونشاطات منظمات غربية غير حكومية حول ما اتُفِقَ على تسميته فيما بينهم بـ"الجنسانية العربية"، إلا أن ولوج هذا الخطاب عن الجنسانية في السجالات العربية الفكرية والصحفية ناهيك عن المنظماتية قد زاد من حماستي لإنجاز الكتاب". ومن الجلي أن مسعد ظل مخلصا لهذه الدوافع على امتداد كتابه، ففي حين نجد كتبا عدة عن التصورات الغربية عن العرب والمسلمين، فإن هذا الكتاب يكشف لنا كيف أثَّرت هذه التصورات على نظرة العرب والمسلمين لأنفسهم، وكيف استخدموا المفاهيم الأوروبية نفسها لتحديد ماهيتهم، لاسيما في موضوع ربط الشهوة الجنسية بالحضارة، وفي الصفحات الآتية سأعرض أهم القضايا التي عُني بها الكاتب في فصول كتابه الستة، خاتمة برأيي النقدي في الكتاب.

من المقدمة يتضح بجلاء أن مسعد يبني آراءه على أطروحة ادوارد سعيد النقدية الشهيرة عن الاستشراق، وإن كان يدفع بها إلى مدى أبعد، ليُرينا كيف عملت الآليات الاستشراقية داخل منجز المفكرين العرب أنفسهم. إن مصطلح ثقافة culture نفسه قد ظهر في القرن الثامن عشر وانتشر منذ بواكير القرن التاسع عشر حاملا دلالات تُعرِّف الطبقة والتعليم وأشكال معينة من المعرفة، وبالنسبة إلى الكاتب فإن الثقافة ليست فرعا من قوى أخرى، وإنما القاعدة المنظمة لتلك القوى؛ إذ يستحيل دراسة الشعر والأغاني والموسيقى والسينما والأساطير والجندرية بمعزل عن المؤسسات التي تحيط بها وعن النظام الاجتماعي والاقتصادي الشامل الذي ما كان لها أن توجد دونه، وبالتالي فإنه لا يمكن النظر إلى توقيت ظهور المعاني الجديدة لكل من ثقافة وحضارة واستخدامهما بصيغ الجمع، في عهد الاستعمار، على أنه من قبيل المصادفة.

[1] نشر المترجم إيهاب عبد الحميد بيانا على صفحته يهاجم فيه وصف المؤلف لترجمته بأنها "ترجمة أولية"، ورد عليه الكاتب جوزيف مسعد في جريدة الشروق بمقال: هل يسرق المؤلف جهد المترجم؟
http://www.shorouknews.com/news/view.aspx?cdate=07022013&id=27bdd852-e1c8-4cca-9577-88f18c9103f2، الدخول في 14 فبراير 2016.
اهتمت الجرائد المصرية بهذا السجال، ونشرت جريدة اليوم السابع مقالا بعنوان "معركة بين إيهاب عبد الحميد وجوزيف مسعد بسبب ترجمة اشتهاء العرب".
http://www.youm7.com/story/0000/0/0/-/939891#.VsCx455f3VI، الدخول في 14 فبراير 2016.
كما نشرت جريدة المال المصرية بيانا للمثقفين تضامنا مع المترجم:
http://www.almalnews.com/Pages/StoryDetails.aspx?ID=34855، الدخول في 14 فبراير 2016.

ومن أهم ما ورد في مقدمة "اشتهاء العرب" استقصاء مسعد لكيفية رد الباحثين العرب على تدني النظرة الأوروبية للحضارة العربية، إذ اعتمد هؤلاء الباحثون عددا من الاستراتيجيات التي تفسر الظواهر الثقافية التي اعتبرت مشينة:

- التأكيد على كون هذه الظواهر لا تمثل حضارة العرب تمثيلا صادقا.

- اعتبارها سلعا مستوردة أفسدت الثقافة العربية النقية.

- اعتبارها ظواهر عالمية وجدت بين العرب كما وجدت بين غيرهم.

كما تناقش المقدمة مفهوم الجنسانية sexuality باعتباره نتاجا للاستعمار، وآراء ادوارد سعيد عن صلة المستشرقين: فلوبير ونيرفال وبورتون ولين، بالشرق الجنسي.

أما في الفصل الأول فيطرح الكاتب فكرة العديد من المثقفين العرب بأن ثمة دروسا يمكن تعلمها من التاريخ الجنسي لعرب الماضي، مقررا أن هذه الفكرة تعتمد أدوات التحليل المستمدة من الأفكار الأوروبية السائدة في أواخر القرن التاسع عشر عن الحضارة والثقافة، وعلى امتداد هذا الفصل يشرح كيف طُرحت تلك الأفكار باعتبارها شبكة تأويلية لتفسير التراث الذي يوظَّف باعتباره مستودعا للوثائق الحضارية وفي نفس الوقت باعتباره منظومة أخلاقية. لقد وجد المؤرخون الحداثيون مجتمعا عربيا قديما يتوافر على أعراف وممارسات جنسية يصعب إدراجها ضمن المشروع القومي الحديث الذي يستمد أفكاره من المفاهيم الأوروبية حول التقدم والتحديث ومنظومة الأخلاق الجنسية الفكتورية. وقد تتبع الكاتب كيفية تعامل مثقفين عرب مع شخصية تراثية إشكالية كأبي نؤاس، إذ تحول أبو نواس في نصف قرن من شخص تمثل محاكاته ضربا من المخاطرة كما صوَّره طه حسين، إلى نموذج تجدر محاكاته كما طرحه أدونيس.

في الفصل الثاني المعنون "في البحث عن الشهوات المفقودة" يسعى الكاتب لاستكشاف الطريقة التي جرت من خلالها كتابة تاريخ "حضارة" العرب والشهوات الجنسية "العربية"، وأي دروس ضمنية استخلِصَت منه لأجل الحاضر، وللقيام بهذه المهمة يحلل مسعد أعمال أهم الكتاب الذين عنوا بتلك المسألة على اختلاف مشاربهم الثقافية ومنطلقاتهم الفكرية، مرتبا إياهم في تحليله ترتيبا زمنيا من الأقدم فالأحدث، وهكذا يبدأ بكتاب صلاح الدين المنجد "الحياة الجنسية عند العرب" المنشور عام١٩٥٨، معتبرا إياه أول محاولة لإنجاز قراءة كاملة للشهوة والممارسات الجنسية في المجتمع العربي منذ عصر الجاهلية وحتى الخلافة العباسية، ومن أهم ما رصده الكاتب ربط المنجد الماضي "المنفتح" بالحاضر "المتزمت" وهو ربط يسبقه إليه طه حسين. كما ناقش باستفاضة نظرة المنجد لمسألة شيوع التعلق بالغلمان في العصر العباسي، فبينما رأى طه حسين أن تأثير الفرس كان كبيرا في تطور شعر الغزل العربي في الغلمان، نسب إليهم المنجد نقل الحب الشهواني للغلمان إلى العرب. ومن هذه الفكرة تحديدا يطرح الكاتب علاقة "القومية" العربية بتحليل المفكرين العرب لماضيهم؛ فالإزاحة الحضارية -من العرب إلى الفرس-في شأن حب الغلمان تمت في ذروة القومية العربية، وهذه الإزاحة دفعت المنجد لجملة من التناقضات -خاصة في ربط الأخلاق الجنسية بتقدم الحضارة أو تخلفها- وهي تناقضات يرصدها الكاتب ويحللها باستفاضة، مرجحا أن يكون لدى المنجد التزام أرسطي بالاعتدال؛ فهو يرفض الإفراط في الانفتاح أو الكبت.

لكن عبداللطيف شرارة—الذي يصفه الكاتب بالقومي الأصولي—كان أشد تأكيدا على أن كل ما هو غير لائق في الحضارة العربية الإسلامية مستورد، ففي كتابه "فلسفة الحب عند العرب" يقتفي شرارة أثر الاختلافات في الأفكار حول الحب من الحضارة العربية المبكرة قبل الإسلام وحتى القرن الثاني بعد الإسلام، ثم يظهر استفظاعه لتلوث الحياة الجنسية عند العباسيين بعدما انحرفت عن الحب الطاهر في الثقافة العربية النقية إلى حب الغلمان، الذي يبرئ العرب منه ويدين به الفرس. ومع أن مفكرا آخر هو صادق العظم يبدو أقل انشغالا بفكرة الحب النقي، دافعا بنظريته في الحب العذري إلى آفاق الحسية وعدم إنكار الشهوة بين العذريين، يلاحظ الكاتب أن الفكر القومي يظهر مجددا في كتابة شوقي ضيف لتاريخ الأدب العربي عندما أخرج المجون من دائرة العرب إلى الفرس وإن أدى ذلك إلى التعسف في الأدلة التاريخية. وقد علق الكاتب على هذه المحاولات بتشبيهها بمحاولات الأوربيين في عصري النهضة والتنوير نسبة كل ما يثير قلقهم إلى غير الأوربيين في سياق عملية اختراع أوربا كتصنيف حضاري متماسك.

إذا كان المنجد وشرارة وضيف قد التفتوا إلى الجنس في ماضي العرب، فإن مفكريْن آخرين ناقشا الجنس المعاصر في إطارين متباعدين: الإسلاموي والعلماني، وهما سيد قطب وسلامة موسى اللذين حظيت آراؤهما بتحليل مستفيض من الكاتب، وقد التفت خاصة إلى أن آراء سيد قطب عن الانحلال الجنسي في أمريكا كانت مناقضة تماما لواقع الحال في أواخر الأربعينات في أمريكا.

ومن الطريف أن سيد قطب يرد على الآراء الاستشراقية الزاعمة أن الفصل بين الجنسين أدى للمثلية الجنسية، في حين يؤكد سلامة موسى هذه النظرية، مقترحا أن تحل مشكلة المثلية بالاختلاط بين الجنسين خاصة في حلبات الرقص، ويخلص الكاتب إلى أن رغبة موسى في تحويل مصر إلى أوربا أوجدت هاجسه بالممارسات الجنسية المصرية وإحساسه بالخجل منها ورغبته في جعلها سوية حتى تعكس الحاضر الأوربي.

وعلى الرغم من أن الكاتب يوضح—في هذا الفصل والكتاب كله—أن الأدوات البحثية الاستشراقية قد استخدمت من قبل العرب أنفسهم لدراسة مجتمعاتهم، فإن هذا الخيط لا يتضح تماما في مناقشاته المستفيضة لأعمال شرارة وقطب وموسى، فقد وضح بالتأكيد تأثر هؤلاء بالفكر الأوربي بأشكال مختلفة، ولكنه لم يبين "الآليات" الاستشراقية التي استخدموها في التحليل والبحث، على أنه يفعل ذلك بوضوح مع مؤلف آخر تعرض لأفكاره بالتحليل، هو عبدالوهاب بوحديبة صاحب كتاب "الجنسانية في الإسلام"، الذي ينشغل فيه بوحديبة بانحطاط الحاضر وانزياحه بعيدا عن النموذج الإسلامي الأكثر انفتاحا، وقد كشف الكاتب باقتدار أن بوحديبة الذي ينتقد كتابات المستشرقين عن الإسلام، يفعل مثلهم في تفسيره المجتمعات العربية المسلمة المعاصرة اعتمادا على القرآن والنصوص الدينية الإسلامية المبكرة، ويلاحظ الكاتب أن الكتابات التي يحللها بوحديبة باعتبارها تراثا إسلاميا كانت في معظمها بعد عصر النبي بمئات السنين، وفي المجمل فإن بوحديبة يبدو كأنما يريد تطهير الإسلام والحضارة العربية الحداثية من كل الشوائب التي لحقت بها، ويوضح الكاتب أن منهجه القائم على اللجوء إلى نصوص قديمة من أجل تفسير المجتمع الحديث من شأنه أن يجتذب أتباعا مخلصين، من مثل المدرسة النسوية الصاعدة منذ السبعينات.

في خضم موجة النسوية يبرز اسمان مثيران للاهتمام: نوال السعداوي التي تكتب بالعربية، وفاطمة المرنيسي التي لم تترجم أعمالها إلى العربية إلا متأخرا، وقد حشدت كلتاهما الأدلة من الجزيرة العربية في عصور ما قبل الإسلام، ومن التاريخ الإسلامي المبكر، سعيا منهما لإبراز المقارنة بين المكانة العليا التي تمتعت بها المرأة في الماضي وبين أوضاعها في الحاضر. وفي حين يرى الكاتب أن السعداوي جمعت في طرحها بين نقد المجتمع القروسطي والمعاصر ونقد التصورات الاستشراقية، فإن المرنيسي بالمقابل وظفت بطريقة استشراقية النصوص العربية القديمة لتأويل المجتمع العربي الحديث؛ إذ وصفت المرنيسي في كتابها "ما وراء الحجاب" العالم العربي بأوصاف مَرَضية، معتبرة أن الإسلام يخاف من قوة الجاذبية الجنسية الأنثوية على الرجال، ويرى الكاتب أن نظرتها هذه للإسلام تنبني عليها مقاربتها بأكملها. وينهي الكاتب فصله الشائق هذا بصفحتين يجمل فيهما موقف كل هؤلاء الكتاب والكاتبات نحو "شهوات الماضي" معتبرا أنهم لم يولوا الحاضر القدر نفسه من الاهتمام، على أن جيلا جديدا في الثمانينات سيفعل.

إذا كان الفصلان الأول والثاني قد ناقشا تأثير الاتجاهات الغربية على السجالات الفكرية داخل البلاد العربية، فإن الفصل الثالث يناقش سعي أوربا وأمريكا للتأثير على المفاهيم العربية حول الشهوة والممارسة الجنسية، وهو سعي يصف الكاتب تأثيره بـ"المزلزل". ومجمل الفكرة أن هناك نظرة وجودية ومعرفية محددة وصارمة تتخذ بديهة من قبل أدبيات غربية متنوعة تصب كلها في قالب "الدفاع عن المثليين والمثليات"، وعلى أساس هذه البديهة تم التعامل مع باقي العالم "غير الغربي".

في الفصل الثالث "إعادة توجيه الشهوة: الأممية المثلية والعالم العربي"، يتكرر استخدام الكاتب لمصطلح "الأممية المثلية"، ويقصد بهذا المصطلح افتراض وجود فعلي دائم لشريحة سكانية من المثليين الجنسيين، ويفهم القارئ—على امتداد هذا الفصل—"الأممية المثلية" باعتبارها جزءا من العدوان الغربي على ثقافات العرب والمسلمين، إذ تحول الممارسة الجنسية من "ممارسة" إلى "هوية". لقد حاجج الكاتب بأن خطاب الأممية المثلية ذاته هو الذي ينتج المثليين في أماكن لا وجود لهم فيها، ويكبت—في ذات الوقت—الشهوات والممارسات الجنسية المثلية التي ترفض الاندماج في منظومته المعرفية الابستمولوجية الجنسية. ويناقش الكاتب بعض الأمثلة على هذا الخطاب، مثل كتابات أرنو شميت وبروس ضن وأسعد أبو خليل الذي يشير إلى "المثليين" و"الغيريين" وكأنها هويات وظواهر عابرة للتاريخ، ويعرّف الناس والممارسات بناء عليها، فارضا تصنيفات عصر معين على عصور أخرى لم تعرف تصنيفات كهذه. وفي كل هذه الخطابات يبقى الغرب مرجعا ومبدأ منظما لكل النقاشات، في حين لا يصبح الزمن في سياق العالم العربي والإسلامي عاملا للتغيير وإنما دليلا على غياب هذا التغيير.

أما الفصل الرابع "آثام وجرائم وأمراض: تصنيفات شهوات الحاضر" فقد ناقش فيه الكاتب الخطاب المتعلق بالجنس في العالم العربي خاصة منذ الثمانينات من القرن العشرين، وهو خطاب يصنف الشذوذ الجنسي باعتباره آفة اجتماعية ونفسية ترمز للمجتمعات المنحطة، كما أنه خطاب يطبق على الماضي كما يطبق على الحاضر. وقد اشترك فيه كلٌ من القوميين والإسلاميين المتفقين على أهمية تاريخ الماضي باعتباره مشروعا للحاضر والمستقبل. وقد التقط الكاتب الخيط الذي ابتناه عديد من المفكرين العرب: العلمانيين والإسلاميين بين الشذوذ الجنسي والحضارة. ومن هؤلاء غالب هلسا في كتابه "العالم، مادة وحركة"، ويقدم

الكتاب تحليلا طبقيا للعالم الإسلامي وتفسيرا سياسيا اجتماعيا لظاهرة المجون التي انتشرت في العصر العباسي، وصقر أبو فخر الذي تحدى خطاب الإحياء الإسلاموي ومحاولاته إعادة كتابة تاريخ العرب مطهرا من الجانب الحسي. أما كتاب "خواطر مسلم في المسألة الجنسية" المنشور سنة 1984 لمحمد جلال كشك، فيصفه الكاتب بأنه أقدم وأعمق إسهامات الإسلاميين في هذا السجال. وقد رأى كشك أن الانفتاح بشأن العلاقات المثلية علامة على الأفول الحضاري وسبب له، كما أكد تأثر الحضارة الإسلامية بالإغريق والرومان فيما يتعلق بظاهرة اشتهاء الغلمان. وقد وصف الكاتب نظرة كشك—الذي لم ينكر الممارسات المثلية في الماضي والحاضر بل الوعد بها في الجنة—بالإسلاموية الليبرالية، في حين تبنى الإسلاميون الآخرون نظرات أقل ليبرالية في تفسيراتهم متأثرين بسيد قطب، معتبرين الإسلام حلا لجميع المشكلات، ولكن اللافت في خطابات هؤلاء استشهاد كثير منهم بالأدبيات الغربية في الموضوع. يتوسع الكاتب في مناقشة كتاب محمد البار "الأمراض الجنسية أسبابها وعلاجها" الذي شكل مرجعا أساسيا لما تلاه من كتابات في الموضوع منذ نشره في 1985. ويرى الكاتب أن مشروع البار قائم على إظهار الغرب في صورة منحطة، وعلى التهويل الدعائي لمرض الإيدز باعتباره نتيجة الانحطاط الجنسي الغربي، وعلى الرغم من أنه مدين للغربيين بتوصيفاته عن الأمراض الجنسية، ويتفق فكريا مع المحافظين المسيحيين إلا أنه كان حريصا على إخفاء ذلك، لأنه لو أثبت أن ثمة "أمريكيين" يشاطرون المسلمين تلك الآراء المحافظة لن يكون الإسلام، كما يفهمه، السبيل الوحيد لتجنب الانحطاط. وإذا كان المستشرقون الغربيون قد عابوا على العالم الإسلامي تهتكه خلال العصور الوسطى فإن البار الإسلامي قد ذكَّر قراءه بتاريخ التهتك الإغريقي والغلمانية. ويخلص الكاتب بعد عرض مزيد من الأمثلة إلى أن هذا الانشغال الهاجسي بالأمراض الجنسية هو انعكاس لمدى تأثر الإسلاموية كحركة دنيوية بأحداث العالم والفكر الغربي، فبينما رأى المستشرقون "القمع الجنسي" و"التهتك" في الشهوات السمات الأكثر ثراء لرصد الفارق بين الإسلام والغرب، فقد اختار الإسلاميون الأعراف والممارسات الجنسية باعتبارها السمات الأكثر ثراء للاستفاضة في موضوع الفروق الحضارية.

ثم ناقش الكاتب "الردود العلمانية" مركِّزا على حركة دور النشر العربية في إعادة طبع النصوص الايروتيكية القديمة، ومقدمات المحققين لها، وعلى الكتب الحديثة التي تناقش الجنس عامة والمثلية خاصة على اختلاف توجهاتها الجدلية والبحثية، مُنهيا هذا الفصل بدخول علم الجريمة إلى الميدان، إذ لم تعد سجالات الجنس مقتصرة على الطبقة والمرض والدين والنسوية بل امتدت إلى الجريمة والعنف.

يستهل الكاتب فصله الخامس "آداب شاذة"، برأي يرى في الرواية أفضل تصوير للممارسات الجنسية المعاصرة، إذ يقدم الشكل الروائي نفسه بوصفه أداة يمكن من خلالها قراءة المجتمع بأقل درجة من درجات التدخل، مقارنة بالأنواع الأخرى من الكتابات الاجتماعية والنفسية والانثربولوجية التي تزعم استخلاص حقيقة التجربة وطبيعتها. وقد سعى الكاتب في هذا الفصل للتنقيب في تاريخ التصويرات الجنسية كما وردت في روايات وقصص ومسرحية واحدة، مستكشفا كيف تحولت الشهوات الجنسية لتشكل المجاز الاجتماعي الرئيس في تصوير حالة المجتمع، مستعينا بقراءة الأدب على فهم الصيرورات التي يتم من خلالها تكوين الذات.

في تحليله للجنس في رواية "زقاق المدق" لنجيب محفوظ، يلاحظ الكاتب أن السياقات الجنسية في الرواية تهدف إلى الإشارة للتغيرات التاريخية والتحولات المعرفية في الأعراف الجنسية التي جلبها الاستعمار وتبِعات الصدمات التي تسببت فيها الحرب. وبالمقارنة مع روايات أخرى، فإن الانتقال من المرح—في زقاق المدق—إلى الميلودراما في تصوير الأمور الجنسية، ينبئ عن تغلغل التصنيفات الغربية، ويشير الكاتب إلى المفارقة في هذا لأن الروايات اللاحقة تحفل بالوعود التحررية المزعومة للحداثة في حين تتراجع عن المرح لحساب الميلودراما والتراجيديا. وبتحليله الاستلهامات الحديثة لقصة الشاعر ديك الجن (الذي تنسب إليه المصادر القديمة قتله محبوبَيْه: غلامه وجاريته، من فرط الغيرة) فإن الكاتب يلاحظ أن المحدثين اتخذوا الأخلاقيات الأوروبية الحداثية مرجعا لهم في مسألة الشهوة، وكتبوا الماضي بعد غربلته من الممارسات التي يعترضون عليها. ويربط الكاتب في هذا الفصل بين مقاربة الكتاب العرب لمسألة الشهوة والتركة الاستعمارية ومتطلبات الاستقلال الوطني، متخذا قصة "العسكري الأسود" ليوسف إدريس نموذجا له. وفي "تلك الرائحة" لصنع الله إبراهيم عدَّ الكاتب المشاهد الجنسية فيها تصويرا لتأثير القمع السياسي على الذكورة والإبداع الأدبي. وتحت عنوان "تشريق الشرق" يرينا الكاتب كيف يتحول الأديب العربي إلى ما يشبه المخبر الانثروبولوجي حين يقدم صورة للشرق تشبه الصورة التي يقدمها الاستشراق، ضاربا المثال على ذلك بمحمد شكري، وبطريقة تقديم الصعيد لدى يحيى الطاهر عبدالله. أما جمال الغيطاني فقد كانت الصورة التي استخدمها في "وقائع حارة الزعفراني" رمزا للتعبير عن اغتصاب سلطة المواطنين هي العنَّة.

ولكن إن كانت كل الروايات والقصص التي ناقشها الكاتب في الفصل الخامس قد كُتِبت قبل صعود التيار الإسلاموي والأممية المثالية، فإن أعمالا أدبية أخرى نُشرت في التسعينات تجسد تأثرا واضحا بالآراء الليبرالية الغربية حول الشؤون الجنسية، إذ لم

تسعَ إلى تصوير الشهوات الجنسية المعاصرة للعربي على ضوء الأعراف الغربية وحسب، وإنما إلى توجيه تلك الشهوات صوب تلك الأعراف، وهذه هي الفكرة المحورية للفصل السادس "حقيقية الشهوات الأدبية". رواية اللبنانية حنان الشيخ "مسك الغزال" تحظى بتحليل وافٍ من الكاتب، نرى من خلاله كيف تصبح الصحراء (السعودية) مرادفا للبدائية والشذوذ، في حين تكون بريطانيا ولبنان مرادفا للتحضر والسَّوية، وكيف تعجز البطلة في الرواية عن فهم الممارسات الجنسية المحلية وإطارها الابستمولوجي إلا من خلال التصنيفات الغربية. ويخلص الكاتب إلى أن "مسك الغزال" تُسهم في الإطار التطوري الرامي لإنقاذ العرب "اللبنانيين" من الاتهام الأوروبي بالبدائية، وإسقاطه على عرب الخليج.

وبمناقشته المستفيضة لمسرحية "طقوس الإشارات والتحولات"، خاصة مضامين مشاهدها الجنسية، نجد الكاتب يتبنى موقفا مخالفا ربما لموقف ونوس المضمن في مسرحيته، فيرى وجوب قراءة الرواية باعتبارها حكاية تحذيرية لأولئك الذين يعتقدون بأن التحرر يكمن في اتباع أجندة الأممية المثلية، وبالرغم من أن ونوس يقف مع التحرر الفردي، فإن الكاتب يلاحظ فشل المشروع الفرداني في المسرحية وتسببه بموت اثنين من دعاته، ليس لتخلف المجتمع—كما يشير ونوس—وإنما أيضا لأن الفردانية كما يفهمها ونوس عاجزة عن إنجاز أهدافها المعلنة، ويقرر الكاتب أن المسرحية تسجل تحول ونوس نفسه إلى ليبرالي غربي. أما في رواية "شرف" لصنع الله إبراهيم فإن مجاز اللواط مجاز مركزي مرتبط بمسائل الحضارة والانحلال، يوضح الكاتب إن رعب العولمة في رواية إبراهيم هو رعب من أن يفنى النوع الذكري عن بكرة أبيه وأن يتحول جميع البشر إلى كائنات قابلة للانتهاك الجنسي وبالتالي بلا "شرف". غير أن الكاتب يدعو لقراءة الرواية بوصفها دعوة من إبراهيم لقرائه لأن يغيروا أفكارهم عن الشرف وأن يستوعبوا أن اختراق العولمة لحياتهم الاقتصادية والاجتماعية أشد خطرا عليهم من ضياع الشرف والرجولة بمعناهما الجنسي.

لقد حاز "اشتهاء العرب" في نسخته الإنجليزية على جائزة ليونيل تريلينج للكتاب عام 2008 وهي جائزة مرموقة تقدمها جامعة كولومبيا تكريما لذكرى الأكاديمي والمثقف ليونيل تريلينج، فكأن منح مسعد هذه الجائزة إقرار بمكانة عمله الأكاديمية بربطها باسم الأكاديمي تريلينج، غير أنه إقرار بدور مسعد باعتباره مثقفا يخاطب قاعدة واسعة خارج النطاق الأكاديمي. فكيف يمكننا مقاربة هذا العمل الذي يعتمد على جهد معمق للتنقيب في أرشيف ضخم؟ يمكننا بالتأكيد أن ننظر إليه باعتباره قراءة تاريخية في أعمال فكرية وأدبية، ولكنه في الواقع أعمق من ذلك بكثير، إذ أن الكتاب من جهة استقصاء فذ للتأريخ للشهوات العربية، واستقصاء لمستويات هذا التأريخ، ولكنه من جهة أخرى ينقب في آليات الصورة، وتكونها، وكيف تكون الصورة المتخيلة عن الأنا عنصرا أساسيا في تصوير هذه الأنا، ومسعد يرينا بوضوح أن صورة الأنا العربي لم يكونها بنفسه، وإنما كُوِّنَت له، فتبناها، بوعي أو بدون وعي في كثير من الأحيان. ومن ثم كانت قراءته للأطروحات العربية في الموضوع منذ بدايات القرن العشرين قراءة تتبع ملامح التطور في تكوين صورة الشهوات العربية لدى العرب أنفسهم، وهي ملامح مرتبطة أشد الارتباط بالتعميمات الغربية والمصطلحات الجنسانية التصنيفية التي يسعى الغرب لعولمتها. وفي هذا الإطار يطرح مسعد فرضية تحول الأدب في العالم العربي خلال القرن العشرين إلى منبر رئيس لمناقشة قضايا الشهوة الجنسية وصلاتها بالحضارة ونقائضها، وكيف تتحول أمور الجنس والشهوة إلى مجازات للقضايا السياسية والاقتصادية، غير أن الكاتب يعلل اهتمامه بالروايات بكونها أفضل تصوير للممارسات الجنسية المعاصرة، إذ يقدم الشكل الروائي نفسه كأداة يمكن من خلالها قراءة المجتمع بأقل درجة من درجات التدخل، ولكن أثناء تحليله لهذه الروايات نرى بأن "أقل درجة من درجات التدخل" توصيف غير دقيق، إذ أن تحليل الكاتب نفسه يكشف عن مستوى عميق من التدخل والانحياز داخل الروايات، لا يقل عن تدخل الكتابات الأنثربولوجية أو التأريخية الأدبية وانحيازها.

ومن جهة أخرى اهتم مسعد بانشغال مؤرخي الأدب المعاصرين بشخصية الماجن خلال القرون الوسطى، وتحويله إلى شخصية الشاذ المريض، وهو ما ينسجم مع التصنيفات الغربية السائدة في علم النفس وعلم الاجتماع، وفي سبيل إثباته لهذا الانسجام نجده يهتم اهتماما لافتا بالجانب التوثيقي للدراسات عن أبي نؤاس، بحيث أن "الثبت الزمني" الذي يقدمه الكاتب لها يصلح مرجعية في تطور هذه الدراسات، ولكن القارئ لا يملك إلا التساؤل عن موقف الكاتب نفسه مما يعرض من مواقف المفكرين الآخرين، فاستعراض نصوص المفكرين يستغرق أحيانا عشرات الصفحات دون أن يتبعه نقاش وافٍ نستشف منه وجهة نظر الكاتب، أو استنتاجات واضحة ختامية في السجال الفكري الذي يستعرضه، فنجده مثلا يستعرض بالتفصيل آراء سلامة موسى ولطفي شرارة وغيرهما في انتشار القيان ودوره في الحياة الجنسية للعرب، ولكنه يُفلت أحيانا خيط انتقاده لتحليلهم، أو يترك القارئ حائرا بشأن تفسير الكاتب نفسه؛ إنه يدرس تأثير الغرب والمستشرقين على أدوات العرب المعاصرين، ولكن هذا التأثير—الذي شُرح بوضوح وتفصيل في الجزء المتعلق بالروايات—ظل غامضا في أجزاء أخرى، فنحن نرى أن موسى والوردي مثلا قد تأثرا بتعليمهما الغربي (أليس هذا طبيعيا؟)، ولكننا لا نرى كيف استخدما "الآليات الاستشراقية" لتكوين صورة الشهوات العربية. على أن هناك أجزاء أخرى في الكتاب التقط فيها مسعد هذا الخيط، خاصة في مناقشته لأطروحة عبد الوهاب بوحديبة، حيث ينتقد بوضوح

منهجه البحثي "الاستشراقي" الذي ينص على لا- زمانية الإسلام، فبحثه السوسيولوجي الوحيد في الحاضر لم يكن سوى بحث أنثروبولوجي لعرب العصر الحديث الذين يعتبرهم مستهلكين للتراث، فمنهجه قائم على تحليل الماضي لفهم الحاضر، بل يلجأ بوحديبة إلى المستشرق إدوارد لين—دون أن يسميه—للحديث عن حقيقة الحياة العربية الماضية والمعاصرة، ويعلق مسعد على ذلك بوضوح أنه في حال محدودية خبرة المخبر المحلي (المقصود بوحديبة)، فإن الشواهد الإثنوغرافية الإمبريالية (إدوارد لين نموذجا) تصبح هي المرشد والدليل. وهكذا انتقد مسعد التصورات النمطية لدى بوحديبة، في حين بقي تأثير الأدوات الغربية والتصوير النمطي غير واضح في بعض أعمال الكتاب الآخرين الذين تعرض لأفكارهم، وحللها دون أن يكشف بجلاء عن أدواتها المنهجية والعوامل المؤثرة فيها.

يبدو الفصل الثالث "إعادة توجيه الشهوة: الأممية المثلية والعالم العربي"، أكثر الفصول إثارة للجدل في هذا الكتاب، وهو نسخة موسعة من مقال كان مسعد قد نشره في 2002، قائم على افتراض مسؤولية الأممية المثلية عن اضطهاد المثليين في العالم العربي، وذلك بلفت أنظار السلطات القمعية إليهم بالإصرار على تعريفهم كهوية متمايزة، فيقدم طرحا يتحدى عولمة الهويات الجنسية، وفرض خطاب الحقوق الجنسية على العالم العربي، ويرى بأن كلا من الإسلاميين والقوميين محقون في مقاومة هذا الخطاب. والكاتب على الرغم من كونه يحشد حججا كثيرة للتدليل على هذا يُحيِّد عوامل أخرى لها علاقة مثلا بنمو شكل معين من التدين في العالم الإسلامي والعربي، أو بتحالفات السلطة السياسية مع السلطة الدينية، أو تأثير الانترنت في تشكيل الهوية الجنسية والوعي بها واختيار شكل الإعلان عنها، وتحييد هذه العوامل لصالح الافتراض أن صناعة هوية للمثليين مستعارة من الغرب هو الذي يجر عليهم الويلات في الشرق، يفتح الباب للتساؤلات حول مدى تحيز الكاتب لفكرة معينة، ويزيد بالتالي من الجدل حول الموضوع.

في الفصلين الأخيرين المعنيين بالأدب، خاصة الرواية، نرى الكاتب قلما يلتفت إلى البعد الجمالي في تحليله النقدي، وإنما يعتمد أساسا مقاربات سوسيولوجية، ونفسية، للتدليل على فكرته المحورية. وربطه المباشر بين الرواية وتيار التفكير داخل المجتمعات العربية ربط يدعو للتساؤل عن مدى دقته، غير أن تحليله الذكي المستفيض للأعمال الأدبية المعاصرة يدفع القارئ للتفكير في جوانب مختلفة في العمل الواحد، فعلى سبيل المثال في تحليله رواية شرف لصنع الله إبراهيم نقرأ مناقشة واعية للمجاز المركزي للواط باعتباره انتهاكا اقتصاديا وسياسيا للعولمة، ولكن هذه المناقشة لا تغفل الفكرة الضمنية في التحقير من قيمة الأنوثة، الذي يلتقط مسعد ضعف وعي الروائي به، وتبنيه أحيانا وجهات نظر شخوصه أنفسهم.

إن مسعد يلتقط الخيط الذي ربما يكون ميشيل فوكو قد أهمله عن التأثير الثقافي للنظام الاستعماري على مفاهيم الجنسانية، ولكنه لا يلتفت كثيرا إلى الخطاب النسوي الأكاديمي، وهو خطاب يحلل مشكلات ما بعد الاستعمار، ولا يقع في فخ التصنيفات الجاهزة للأممية المثلية، كما أن الخطاب النسوي الأكاديمي واع في تحدِّيه لمشاريع الثقافة الغربية القائمة على الجندر والجنسانية، لخدمة أهداف غربية سياسية واقتصادية. لقد طمح كاتب "اشتهاء العرب" إلى طرح مفاهيم مختلفة عن الشهوات والسياسات والذوات، وإلى الكشف عن زيف ثنائية الكبت\الإباحية التي فرضها التصور الغربي على الممارسات الجنسية للعرب، ولا شك أنه نجح في ذلك إلى حد بعيد.